نشأة الثقافة العربية وصلتها بالتراث الإنساني القديم

بقلم محمد عيد

١ ـ

يتميز العصر العباسي الاول في تاريخ العرب العلمي ـ باتفاق معظم الدارسين ـ بميزتين انفرد بهما على ما سبقه وما لحقه من عصور ، فيتميز هذا العصر بانه قد بدأ فيه وضع العلوم العربية بمعناها المحدد المنظم وقد كانت من قبل بلا تحديد ولا تنظيم ، ذلك ان العلماء لم يفرقوا من قبل تفريقا حاسما بين علم وآخر ، فالثقافة وحدة واحدة ، والعالم يتحدث في الفقه وفي التفسير وفي النحو وفي اللغة وفي الاخبار والاشعار والنوادر ، ولم يكن للحديث في هذه الامور منهج منظم يحكم من يتحدث او يؤلف في موضوعه في اطار معين ، وانما هي جزئيات يتناولها اولو العلم كيفما اتفق ، فمن تحدث في الفقه تحدث فيما يعرض له من مسائله اجتهادا من القرآن والسنة ، ومن اقرأ النحو او الف فيه تناول مسائل متناثرة قصيرة النفس .

وفي العصر العباسي الاول بدأ وضع العلوم بطريقة محددة منظمة، يقول الذهبي : « وكثر تدوين العلم وتبويبه ، فدونت كتب العربية واللغة والتاريخ ، وايام الناس ، وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم ، او يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » (١) فالذهبي يقرر بنصه السابق ان العلوم قد دونت محددة منظمة ، وان العلماء قبل هذا العصر لم يؤلفوا بالمعنى السابق بل كانوا يتحدثون من ذاكرتهم ، او يملون من صحف غير مرتبة ، وان كنا لا نستطيع ان نحدد بداية ذلك بالتاريخ السياسي للدولة العباسية (١٣٢ هـ) فالعصور العلمية لا يمكن تحديدها تحديدا قاطعا كالعصور السياسية ، بل نقول بالتقريب : ان التأليف العلمي العربي قد بدأ بصورة منظمة مستقلة منذ بداية القرن الثاني .

وقد كانت هذه ميزة لهذا العصر على ما لحقه من عصور ، ذلك انه وضع البذور العلمية الاولى التي بنى عليها من جاء من بعد ، فقل ان نرى علما اسلاميا نشأ من بعد ، ولم يكن له اصل في هذا العصر ، وضع تفسير القرآن ، ووضعت علومه ، ووضع علم النحو ، ونما حتى الف فيه سيبويه كتابه المشهور ووضعت كتب اللغة ، ورسم خطتها الخليل ابن احمد ، بل بدأ البحث في الفلسفة والتاريخ ، والطب والفلك وغيرها (٢) .

واما الامر الثاني الجديد والخطير في هذا العصر فهو حركة الترجمة التي صاحبت بداية البحث في هذه العلوم ـ وهي التي تهمنا بصفة خاصة في هذا المقال ـ ذلك ان حركة التأليف العلمي العربية قد تأثرت الى حد كبير ـ في الدارسين وفي مادة الدراسة ـ بالثقافات الاجنبية التي عاصرتها وسبقتها في الزمن. ويحدد السيوطي اول خليفة بدأت في عهده الترجمة بقوله : قال محمد بن علي الخراساني : المنصور اول خليفة قرب المنجمين ، وعمل باحكام النجوم ، واول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية بالعربية ، ككتاب كليلة ودمنة ، واقليدس (٣) ، واذا كان من روى عنه السيوطي يغفل المجهودات العلمية التي تمت بعيدا عن الجهات الرسمية من قبل ، فانه يدل بما قاله على عناية الخلفاء العباسيين بالترجمة وتشجيعها من جهة ، وعلى قوتها وتأثيرها كجانب هام من جوانب الثقافة في عصر المنصور وبداية التأليف من جهة اخرى .

والثقافات التي صاحبت الفكر العربي في تلك الفترة هي الفارسية والهندية والهلينية ، وسأتناول هذه الثلاث باختصار ـ تسمح به طبيعة المقال ـ مبينا كيف حدثت الصلة بينها وبين التفكير العربي في فترة التأليف العلمي التي سبق ذكرها ، ثم مدى تأثيرها فيمن قدموا جهودهم العظيمة في هذه الحركة الرائعة ، واخيرا نتبين في ضوء هذا البحث ما يمكن ان يفيده منه الباحثون والقراء .

٢ ـ الفارسية

غزت الجيوش العربية بلاد الفرس في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب ، وخضعت هذه البلاد حربيا بعد موقعتي القادسية ونهاوند ، وبدأ بين الشعبين العربي والفارسي عهد جديد ، وعلاقات فكرية واسعة المدى خطيرة النتائج ، فانتشر الاسلام بين الايرانيين انتشارا سريعا ، لما كانوا يعانونه من تخلف ديني ، وتحكم طبقي ، كما صاحبه انتشار اللغة العربية ، فاصبحت هي اللغة الرسمية لشئون الدولة ، والصلة بين الفاتحين والايرانيين . ويهمنا ان نعرف الى اي مدى كان تأثير الناحية الفكرية لاندماج الفرس بالعرب بعد فترة كافية لنضج هذا الاندماج وثباته استغرقت تقريبا القرن الاول الهجري كله .

ويمكن ان نقول باختصار : ان الفرس الذين اسلموا قد اثروا في الثقافة العربية تأثيرا قويا بما قدموه من ابحاث ، وافكار خصبة ،على حين تأثر لسانهم الفارسي بنفس القوة باللغة العربية .

اما تأثيرهم في الفكر العربي والتأليف العلمي ، فلم يكن ذلك لانهم نقلوا مناهج واصولا ومادة علمية كانت معدة لديهم من قبل ، فطبقوها على الثقافة العربية ، وغذوها بها ـ كلا ، لم يكن الامر كذلك ، بل ان حضارة الفرس العريقة التي كانوا يعيشون فيها من قبل قد اكسبتهم استعدادا ذوقيا وفكريا ، وتهيؤا حضاريا عاشوا فيه طويلا من قبل ، وعندما حل ميعاد التأليف العلمي العربي تقدم منهم في هذا الميدان من اثروه ونموه ، فزاملوا غزاتهم المعتزين بلغتهم في الكتابة بهذه اللغة ، ودخلوا معهم ثقافتهم مؤلفين مثلهم ، لا بما ترجموه من ثقافة كانت معدة لديهم « فالنقل عن الفارسية كان قليلا ، وكان ميدانه ضيقا ، فقد انحصر في بعض الكتب الادبية التي نقلها علماء مثل ابن المقفع الى العربية ، كما فعل في كتاب تنسر » (٤) .

وقد غالى بعض المستشرقين في نظرته لما قدمه الفرس للثقافة العربية ، فراح يدل بدراساتهم العلمية في التأليف العربي ، فيقول ج. براون : « خذ مما يسمى في العادة بعلوم العرب من تفاسير وحديث وكلام وفلسفة وطب ومعاجم لغوية وتاريخ وتراجم ، بل ومن نحو عربي ما ساهم به الفرس من اعمال ، تجد ان خير ما كتب من هذه الاعمال قد تولوه » كما راح بعضهم الاخر يدل بالاسماء الفارسية اللامعة في مجال التأليف ، وان العرب مدينون بكل الامتنان لعلماء الفرس ، فيقول :

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٢

(٢) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٣

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥

(٤) تراث فارس (مجموعة مقالات للمستشرقين) ـ مقالة اسلام الفرس ، ص ٢٤

« ولا مجال هنا لسرد طائفة جافة من الاسماء ، ولكن يمكن توضيح قولنا بامثلة قليلة اذا ذكرنا ان الاسماء الاتية كانت لعلماء من الفرس، سيبويه (ت ٧٩٣ م) الكسائي (ت ٨٠٥ م) الفراء (ت ٨٢٢ م) وهؤلاء كانوا من النحاة ، ومن اللغويين ابن قتيبة (ت ٨٨٩ م) والجوهري (ت ١٠٠٢م) وابن فارس (ت ١٠٠٥ م) » واستمر بعد ذلك في عد قائمة طويلة باسماء الفقهاء والشعراء والكتاب والجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة(٥).

ولا ينكر احد ما قام به هؤلاء العلماء الافذاذ من مجهودات علمية تستحق الثناء والتقدير ، بجانب الاف العلماء من العرب الخلص في كل مجالات العلوم مثل « ابي عمرو بن العلاء المازني » (ت ١٥٤ هـ) والذي يطلق عليه صفة « استاذ الاساتذة » والخليل بن احمد الازدي (ت ١٧٠هـ) وهو استاذ سيبويه ، وثقة اللغة سعيد بن اوس الانصاري (ت ٢١٥ هـ) وغيرهم في كل فنون المعرفة العربية ، فقد دخل الجميع ميدان التاليف العلمي وتزاملوا في انتاج هذا التراث العظيم باللغة العربية وفي رعاية الاسلام .

فاذا ما ركزنا على الجانب اللغوي خاصة عرفنا قيمة الرأي الشائع الذي يتخذ من تقدم البصرة فيه دليل مزية للفرس على هذا الجانب الهام من ثقافتنا ، والذي يردده كثير من المستشرقين ، ويتابعهم فيه غيرهم من الدارسين ، اذ ينسب فون كريمر Von Kremer نشأة النحو العربي وابحاثه الى غير العرب ، فيقول « وهناك رواية يتناقلها الناس في اغلب الاحيان ، وبمقتضاها كان تسرب الفساد الى اللغة العربية في البصرة هو السبب في ضرورة وضع قواعد النحو لانقاذ اللغة العربية من الاضمحلال والفساد في المستقبل ، ولا حاجة بنا هنا الى القول بان هذه الرواية لا يعول عليها اطلاقا ، ولا اساس لها، فالنحو العربي من وضع الاجانب من الآراميين والفرس » (٦) فهذا الرأي يأخذ المسألة من وجهة نظر جانبية منحازة ، تماما مثل الرأي الاخر الذي انكره « كريمر » والذي يرى ان العرب هم اصحاب كل الفضل في هذا الموضوع ، فمن الحق ان كلتا الطائفتين قد ساهمت في ذلك بعد ان اندمجتا في اطار الوحدة الدينية واللغوية ، ولا داعي لاطلاق لفظ الاجانب على غير العرب ـ فقد تعربوا بدخولهم الاسلام وحديثهم بالعربية، وفي ذلك يقول احد المنصفين : ولا يمكن ان نعرف على وجه التحقيق اولئك الذين بدأوا بدراسة فقه اللغة العربية ، ومن المحتمل ان الاجانب والفرس ، بصفة خاصة قد قاموا بوضع الاساس في ذلك ، ولكن ذلك ما كان يتم لهم لولا معونة العرب الصادقة (٧) ، ففي هذا الجانب الهام من ثقافتنا لا يخرج الامر عما سبق من ان جهد الفرس كان جهد المزاملة لا الاستاذية ، جهد المشاركة لا النقل و التفرد بابداع واختراع .

اما تأثر اللغة الفارسية بالعربية ، فقد تقدم ان الفرس قد اعتنقوا الاسلام ، وتحدثوا العربية ، واللغة الفارسية التي كانت قبل الفتح قد انهارت تماما بعد الفتح ، وتلاشت في لهجات التكلم العامية ، واللغة الادبية الفارسية التي نشأت بعد ، قد نشأت في كنف العربية وتحت وصايتها . فكان من الطبيعي ان تتأثر تأثرا كبيرا وعميقا بلغة الفاتحين العرب في مفرداتها واصطلاحاتها وبلاغتها ، بل وفي قواعد نحوها احيانا، مما يعرفه جيدا الدارسون لكلتا اللغتين في عصرنا الحديث .

من هذا العرض الموجز نتبين الحقائق التالية : ان الفرس دخلوا التاليف العلمي مجتهدين كما دخله العرب ، ولم يكن لثقافتهم السابقة كبير تأثير ، كما نتبين ايضا سوقية ما يشاع من فضلهم المتفرد على الدراسات اللغوية العربية ، بل ان الامر بالعكس حيث اثرت العربية في الفارسية اعمق التاثير .

(٥) راجع هذا الموضوع في السابق ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥

(٦) الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ص ٩٠

(٧) انظر : الحضارة العربية ص ٦٩

٣ ـ الهندية

بدأت الصلة السياسية بين العرب والهنود بالفتح العربي ، وكانت هناك صلات تجارية بينهما منذ آماد بعيدة . بل ان ذلك في رأي بعض الباحثين ، كان أحد الطرق التي عبرت عليها ثقافة اليونان الى الهند قديما .

وقد راود الفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان . ويحكي البلاذري: انه لما ولي عثمان بن عفان ، وولي عبدالله بن عامر بن كريز العراق، كتب اليه يأمره ان يوجه الى ثغر الهند من يعلمه ، وينصرف اليه بخبره ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع اوفده الى عثمان ، فسأله عن حال البلاد ، فقال : يا امير المؤمنين ، قد عرفتها وتنحرتها ، قال: فصفها لي ، قال : ماؤها وشل ، وثمرها بقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثروا جاعوا ، فقال له عثمان : اخابر ام ساجع ، قال: بل خابر ، فلم يغزها احد (٨) . وعلى كل حال فقد فتحت الهند فيما بعد ، ففتحها محمد بن القاسم الثقفي بتوجيه من الحجاج بن يوسف الثقفي ايام الوليد بن عبد الملك .

كان من الطبيعي أن يحدث بين العرب والهنود صلات ثقافية نتيجة التجارة والفتح ، وان يتأثر كل منهما بالاخر ما دامت قد وجدت ظروف الاندماج والاختلاط ، خصوصا وان الهند من الامم العريقة ذات الحضارات القديمة .

وتحديد نقطة البداية في الصلات الثقافية بين العرب والهنود يحتاج الى جهد اكبر من هذا المقال ، ولكن المؤكد ان الهنود في العصر العباسي الاول الذي بدأ فيه تدوين العلوم العربية كانت لهم صلات بالثقافة العربية ، وان كانت صلتهم متأخرة نسبيا عن الصلة العربية الفارسية ، ولم يبد للهنود ـ باحثين أو مادة علمية ـ من الاثر والمشاركة الفعالة مثل ما صنعه الفرس ، ولم يكن لهم من العمق والقوة في التأثير العلمي ما يداني أخوانهم الفرس في الاندماج الحيوي المثمر ، وانما اقتصرت صلاتهم على بعض فروع المعرفة ، واثروا فيها تأثيرا جزئيا ، ويبدو ان السبب في ذلك هو بعدهم المكاني عن العرب ، وان صلتهم بهم بدأت متأخرة عن الفرس ، وان معارفهم معارف منكمشة تقتصر على المغيبات العلمية ، والحكم الساذجة .

وعلى كل حال ، فقد وجدت الصلات حتى في هذا الاطار الضيق، وعاش بعض علماء الهند في بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد ، ورحل الى الهند بعد الفتح العربي علماء من العرب المسلمين ، ومن اشهرهم « البيروني » في القرن الحادي عشر الميلادي الذي طاف ببلاد الهند ، ونشر فيها علوم العرب ، يقول ي. هل : وكان طبيعيا ان يتجلى اعظم احتكاك حيوي بين الثقافات المختلفة عندما اصبحت الديانة الجديدة هي حلقة الاتصال بين الحاكم والمحكوم (٩) ، وقد بدا اثر هذا الاحتكاك الحيوي في عصر التاليف ـ بدليل وجود العلماء الذين اشرت اليهم سابقا ـ وهذا لا يمنع من وجود مجهودات فردية قام بها العلماء من قبل ، غير انها لا يمكن ان تقارن بصورة التاثير التي حدثت فيما بعد في عصر النهضة العربية الرائعة .

وقد كان للهنود ميادين خاصة ـ وضيقة على ما ذكرت ـ اثروا فيها ، ومن اهمها الحكمة والرياضيات والفلك ، يقول دي بور « وقد ذاعت المعرفة بالحكمة الهندية بين العرب ... وترجم الكثير من هذه الحكمة في عهد المنصور والرشيد » « وكم من اقوال في الحكمة الاخلاقية او السياسية اخذت من قصص الهنود واساطيرهم مثل قصص بانتشاتانترا (كليلة ودمنة) وغيرها التي نقلها عن الفهلوية ابن المقفع في عهد المنصور » « وكان للرياضيات الهندية اكبر الاثر في بواكير الحكمة العقلية في الاسلام ، وعرف كتاب السند هند لبرهمكويت » (١٠)

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

(٨) فتوح البلدان ص ٤٣٨

(٩) الحضارة العربية ص ١٠٧

(١٠) راجع هذه الاقوال في : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٢، ١٣

نشأة الثقافة العربية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

ويقول احمد امين « واتصل المسلمون بالهنود ، واخذوا عنهم كتاب السند هند وترجموا كتابا ثانيا اسمه الاركند ، وثالثا اسمه الارجبهر » (١١) ويقول ي. هل « وكان الفلك من احب الدراسات الى العرب بعد الرياضيات ... ثم زاد الاقبال عليه بعد ترجمة((السيدهانتا)) وهو كتاب الفلك عند الهنود القدماء » (١٢) .

هذه شذرات تشير الى ما وجه اليه العرب اهتمامهم من ثقافة الهنود ، وهي تدل على ما سبق ان ذكرته من الانحصار في لون معينمن الثقافة ، وفي جانب ضيق فيها ، لم يتجاوزوه الى الجوانب الحيوية الاخرى ، التي طرقها العرب ، مثل الدراسات اللغويّة والكونية والعقلية، ولكني وجدت حديثا للبيروني يشير الى تأثير في نشأة التفكير اللغوي عند العرب ، اذ يحكي في حديثه عن النحو والشعر في الهند فيقول : هذان الفنان من العلوم آلة لبواقيها ، والمقدم عندهم منها علم اللغة المسمى (بياكرن) وهو نحو يصحح كلامهم ، واشتقاقات تؤدي بهم الى البلاغة في الكتابة والفصاحة في الخطابة ولسنا بمهتدين لشيء منه ، فانه فرع اصل قد عدمناه ... وقالوا في اولية هذا العلم ان احد ملوكهم واسمه (سملواهن) كان يوما في حوض يلاعب فيه نساءه،فقال لاحداهن (ماودكندهي) اي : لا ترشي علي الماء ، فظنت انه يقول (مودكندهي) اي : احملي حلوي ، فذهبت فاقبلت به ، فانكر الملك فعلها ، وتشاجرا ، فحزن الملك ، وامتنع عن الطعام حتى جاءه احد علمائهم ، وسلى عنه ووعده تعليم النحو وتصاريف الكلام ، وذهب ذلك العالم الى (مهاديو) مصليا متضرعا ، حتى ظهر له ، واعطاه قوانين يسيرة كما وضعها في العربية ابو الاسود الدؤلي (١٣) .

وهذه القصة يبدو فيها الخيال والسذاجة والوضع شأن كثير من القصص التي اختلقت عن كثير من بدايات العلوم ، ولكنا نجد فيها امرين يستحقان المناقشة هما : وجود نحو وصرف لدى الهنود وان ابا الاسود قد وضعه في العربية كما كان عندهم .

اما الامر الاول فانه وان كان البيروني يقول « ولسنا بمهتدين لشيء منه ، فانه فرع أصل قد عدمناه » فقد اهتدينا نحن للاصل والفرع ، اذ اكتشف اللغويون المحدثون اللغة السنسكريتية ونحوها وصرفها وقارنوها بلغات اخرى من نفس الفصيلة ، وليس فيما اكتشف ما يشير الى صلة بدراسات اللغة العربية ، ففي اي شيء اذن تأثر ابو الاسود الدؤلي ؟؟ ـ وربما قد تأثر في مجرد اثارته الى هذا العمل ، ولكن ذلك ايضا لا يجد ما يؤيده ، لان ابا الاسود كان في وقت مبكر عن الاندماج العلمي بين العرب والهنود ، ولاننا لا نجد في دراسة النحو العربي ما يؤيد هذه الفكرة .

نعم قد وجد في العربية من ساهموا بانتاجهم الادبي واللغوي من الهنود ـ وهم قليل ـ كأبي السندي ، وابن الاعرابي ، ولكن شأن هؤلاء شأن غيرهم ممن ساهموا في الثقافة العربية من العرب والفرس، فتعاونوا في حقل العربية ، وزاملوهم في هذا الانتاج العظيم .

ومن هذا العرض الموجز نتبين : ان الاحتكاك الفكري بين العرب والهنود بدأ متأخرا عما بينهم وبين الفرس ، وان تأثيرهم لم يكن من القوة والتوهج بالصورة التي ظهر بها الفرس ، وانه انحصر في مجالات ضيقة بعيدا عن تيار الثقافة العربية العميق الدافق .

(١١) ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٥٥

(١٢) الحضارة العربية ص ١١٠

(١٣ تحقيق ما للهند من مقولة Chapter 13 ص ٩٥

٤ ـ اليونانية

لو اردنا ان نجدد تحديداً دقيقا الصلة بالثقافة اليونانية في تاريخها وتطورها وطرقها ومظاهرها وتأثيرها في الثقافة العربية وموضوعاتها المختلفة لاحتاج ذلك لمجلد مستقل ، ولكن في هذا البحث الموجز ـ اضع خطوطا عامة تعكس تلك الجوانب كلها ، دون ان يشط بنا الحديث في مسالك متشعبة وطويلة .

أ ـ تاريخ الصلة بالثقافة اليونانية :

ان الثابت الذي سيتضح بعد انه في فترة تدوين العلوم العربية في القرن الثاني الهجري، ثم ازدهارها بعد ذلك ، كانت الثقافة اليونانية معروفة لدى العرب ، اذ يرجع تاريخ هذه الثقافة الى ما قبل ذلكبزمن طويل ، فاليونان الذين كانوا اساتذة العالم القديم لم تقف ثقافتهم عند حدود وطنهم ، بل تسربت الى كثير من البلاد المعروفة في ذلكالوقت بفعل الاختلاط وهجرة العلماء . وكان من تلك البلاد التي احتضنت معارف اليونان سورية والعراق وبلاد فارس ، يقول لوبون : « كانت معارف اليونان والرومان العلمية القديمة منتشرة في بلاد الفرسوسورية منذ زمن » ويقول « قصد علماء اثينة والاسكندرية الى فارس فنقلوا الى اكثر لغات الشرق انتشارا كالسريانية والكلدانية اهم كتب علماء اليونان » (١٤) .

لقد وجدت اذن معارف اليونان في المنطقة التي جال فيها العرب فيما بعد ، وهي بلاد الشام والعراق وفارس ، والملاحظ في هذه الحركة العلمية ان اللغة السريانية كانت اكبر الاوعيةالتي حملتافكار اليونانيين وعلومهم لتوصيلها الى كل من الفرس والعرب ، على الرغم من أن اكاسرة الفرس قد احتضنوا العلماء الوافدين اليهم من الشام والعراق واثينة ، ويشير ذلك الى حقيقة ستتضح بعد ، وهي مقدار قوة اللغة السريانية ونفوذها الثقافي في هذه المنطقة من العالم في ذلك الوقت .

وحين فتح العرب مناطق نفوذ الثقافة اليونانية ـ الشاموالعراق وفارس ـ استوقف نظرهم هذه الثقافة الغنية ، واثار دهشتهمما وجدوه من فنون وعلوم واداب هيلينية ، فبدأوا التفاعل مع تلك الثقافة فيوقت مبكر ، واتجهوا لنقلها الى لغتهم بجهود غير منظمة اولا ، اذ يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان عالما بالكيمياء والطب انه جمعحوله جماعة من المشتغلين بالعلم والبارعين في اللغة اليونانية ، لكييترجموا الكتب اليونانية الى العربية ، وكان هذا اول معرفة للعرب بالثقافة اليونانية في لغتهم (١٥) ، والذي تشير اليه هذه الرواية ـ بصرف النظر عن مناقشة صحتها ـ انه كان هناك مجهودات فردية في نقل تلك الثقافة الى العربية في وقت مبكر ، ولكن في عصر تدوين العلوم ، اصبحت تلك الثقافة معروفة تماما « واصبح الرسم عند الخلفاء عامة ان ينقلوا عن اليونان اكبر قدر من ثقافتهم ، وكان للمنصور وهارون الرشيد ثم للمأمون باع في هذا الميدان » (١٦) بل ان العرب لم يكتفوا بما وجدوه من ثقافة اليونان في اللغة السريانية ، بل تعلم كثير منهم اللغة اليونانية ، ليتصلوا بثقافتها اتصالا مباشرا ، ولينقلوا الى اللغة العربية ما لم يكن قد نقل من قبل الى السريانية .

ب ـ اهم مراكز الاتصال بالثقافة اليونانية :

كان للثقافة اليونانية مراكز شهيرة عرفها العرب حين جالوا ببلادها ، ومنها « حران » و « جنديسابور » و « الاديرة النصرانية » وهذه الثلاثة تمثل اهم مراكز الاتصال في البلاد الثلاثة العراق وفارس والشام ، وساقدم عن كل منها فكرة موجزة ، تبين نشاطها العلمي واتصال العرب بها.

أ ـ حران :

مدينة كانت في شمال العراق ، وهي موغلة في القدم ، اذ عاصرت ـ كما يقول احمد امين ـ اليونان والرومان والنصرانية والاسلام ، وقد

(١٤) انظر : حضارة العرب ص ٤٣٣.

(١٥) تراث فارس : مقالة اسلام الفرس ص ٢٣

(١٦) السابق ـ نفس الصفحة .

اختلط فيها من السكان اجناس مختلفة ، فقد تجاور فيها اهلها الاصليون والاغريق والارمن .

وقد نشطت الثقافة اليونانية في تلك المدينة نشاطا كبيرا،لوجود الاغريق الذين يعيشون فيها من جهة ، ولترجمة كثير من الكتب اليونانية من جهة اخرى « وقد اخذ الحرانيون عن حسن نية باراء موضوعة ترجع للعصر الاغريقي المتاخر ، وقد نشط بعضهم في الترجمة ، وفي تاليف يدل على سعة العلم » (١٧) .

وقد ازداد نمو تلك المدينة ثقافيا في العصور القديمة حين انتقلت اليها في عصر متاخر نسبيا مدرسة « انطاكية » ومكتبتها التي ورثت مدرسة الاسكندرية من قبل ، وقوام الثقافة في المدرستين ، كان الثقافة اليونانية ، وبخاصة منطق ارسطو .

وعندما فتح العرب العراق ، وبدات حركة التاليف العلمي افاد العرب من الحرانيين ، وعرفوا مظاهر نشاطهم العلمي ، وكانت هذه المدينة احد المنابع التي استقى منها العرب ثقافة اليونان . ويحدد «دي بور » الوقت الذي اشتدت فيه الصلة بين علماء المدينة وبين العرب فيقول : « وكان الكثير منهم على اتصال علمي وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن الى العاشر (الثاني والرابع من الهجرة) »(١٨) وهو نفس الوقت الذي بدا فيه التاليف العربي وازدهر .

ب ـ جنديسابور :

مدينة كانت في غرب فارس ، اسسها الملك الفارسي « كسرى انوشروان » حوالي (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) وقد ازدهرت الثقافة الهيلينية في تلك المدينة ازدهارا عظيما ، وذلك بسبب العناية والرعاية التي لاقاها علماؤها من ملوك الفرس ، لان معظمهم كانوا من المسيحيين النسطوريين الهاربين من وجه الكنيسة الشرقية التي اضطهدتهم ، فآواهم الفرس ـ اعداء الرومان ـ ووجدوا عندهم التسامح والامان « ومن ثم استانفوا دراستهم في الهدوء الذي ساد وطنهم الجديد ، واصبحوا رسل الحضارة الافريقية الى العالم اجمع » (١٩) .

وقد اتصل العرب بثقافة تلك المدرسة في وقت مبكر عن اتصالهم بمدرسة (حران) وافادوا في حركتهم الثقافية في فترة التاليف ، وظلت هذه المدرسة التي كانت نتاجا للحضارة الاغريقية ـ كما يقول لوبون ـ تشع نورها ، وتنهض بالدراسة كذلك زمن العباسيين .

ج ـ اديرة الشام :

اذا كانت الثقافة اليونانية قد اوت الى (حران) في العراق ، و « جنديسابور » في فارس فقد وجدت لها ملاذا في الشام في الاديرة التي كان يلحق بها مدارس ، اسمها بالسريانية (اسكولي) ومنه اخذ العرب اللفظ (اسكول) الذي يدل على مدرسة مسيحية او مدرسة ملحقة بدير وهو نفس اللفظ المستعمل في الانجليزية School ومعناه مدرسة ، ولعل منشأه واحد اذ اخذه السريان من الاغريقية،واستعملته الانجليزية ايضا..

هذه المدارس الملحقة بالديارات على الرغم من انها مدارس لاهوتية، فقد كانت تعنى بدراسة كثير من العلوم الدنيوية ، ومن هذه العلوم النحو والبيان والفلسفة ، والجدير بالذكر ان اللغة السريانية واللغة اليونانية كانتا تدرسان جنبا الى جنب في مدارس تلك الاديرة (٢٠) .

كانت مدارس الاديرة تهتم اذن بالعلوم الدنيوية واللاهوتية ، وتجاورت بها اللغة السريانية واليونانية ، وبذلك تهيات وسائل نقل ثقافة اليونان الى اللغة السريانية « فترجموا منها ليس مايتعلق بالدين فحسب ، بل وكل ما يتناول الامور الدنيوية كذلك ، وغدا الشائع ان يكرس الكتاب اهتمامهم الخاص بارسطو وابقراط وجالينوس »(٢١) وبذلك يمكننا ان نقدر تلك الثروة الكبيرة من الكتب اليونانية التي وجدها العرب حين اتصلوا بسورية والعراق ، والتي يقول عنها لوبون : « فوجد العرب في بلاد فارس وسورية حين استولوا عليها خزائن من العلوم اليونانية ، وامروا بنقل ما في اللغة السريانية الى العربية ... فاخذت دراسات العلوم والاداب تسير قدما الى الامام » (٢٢) وبذلك اتضح الطريق الثالث ـ وهو اهم الطرق واخطرها ـ حيث سلكت ثقافة اليونان الى التفكير العربي .

ولا يمكن هنا ان استمر في عرض مفصل لما قامت به كل واحدة من هذه الثلاث، ودراسة العلماء الذين اشتغلوا في النقل بين هذه اللغات الثلاث ـ اليونانية والسريانية والعربية ـ فان لذلك حديثه الخاص ، وهدفي ان اقرر الصلة بين الفكر العربي واليوناني عن طريق هذه الثلاث ، ولعلي قد وفقت .

ج ـ السريان ودورهم الثقافي بين العرب واليونان :

كانت تلك المراكز الثقافية المختلفة تموج بحركة علمية ضخمة في التاليف والترجمة ، وكانت تلك الحركة في جملتها تستخدم اللغتين اليونانية والسريانية سواء في المراكز العلمية او في مدارس الاديرة ، وقد شارك في هذه الحركة اجناس مختلفة كالفرس والاغريق ، وكان من هؤلاء ايضا بعض رجال الدين من اجناس اخرى ممن فروا من وجه الاضطهاد الكنسي الشرقي ، ولكن المبرزين بين هؤلاء كانوا من السريان، فمن هم هؤلاء السريان ؟؟ وما هي لغتهم ؟؟ وما دورهم العلمي في الصلة بين الثقافة العربية واليونانية ؟؟

السريان مجموعة من القبائل السامية توطنت قديما سوريا والعراق وشمالي الجزيرة العربية ، وكان يطلق عليهم اسم (الآراميين) . ولما جاءت المسيحية ، ودخلوا النصرانية ، غيروا اسمهم الى السريان وذلك لان الاسم الاول (ارامي) كان يذكرهم بوثنيتهم ، وفي العبرية لفظة (ارامي) معناها وثني ، وقد كان تنصرهم من اسباب تاثرهم بالهيلينية ، فكانت الاغريقية واللاتينية من اللغات التي تدرس في مدارسهم .

وترجع اللغة السريانية الى اللغة الارامية التي كانت لغة القبائل المنتشرة فيما يعرف الان بالعراق وسوريا وفلسطين (بابل وآشور وكنعان قديما) وقد تغلبت لغة الاراميين على جميع اللغات التي كانت منتشرة في هذه المنطقة ، وتم لها النصر النهائي عليها فيما قبل الميلاد ، ثم تشعبت اللغة الارامية الى لهجات عدة ، ومن هذه اللهجات اللغة السريانية المعروفة الان في الاوساط العلمية ، وقد اخترع الكتاب الاراميون المسيحيون الاصطلاح Suray ليدلوا به على لغتهم ، لان من اشهر اقاليم هذه اللغة هو اقليم « سوريا » واصبح يطلق على الارامية المسيحية اسم (السريانية) تحت تاثير العامل الديني السابق الذكر ، حيث كان يذكرهم لفظ « ارامية » بالوثنية .

(١٧) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٨

(١٨) السابق ـ نفس الصفحة .

(١٩) الحضارة العربية ص ١٠٦

(٢٠) لاستيعاب ذلك انظر : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٥٣ وما بعدها .

(٢١) الحضارة العربية ص ١٠٦

(٢٢) الحضارة العربية ص ٤٣٣

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

وقد ظلت اللغة السريانية قوية حتى فتح العرب المناطق الموجودة بها ، واخذت العربية تطاردها وتنتصر عليها ، وتحل محلها ، خصوصا في المحادثة والحياة العادية ، وان كانت السريانية قد بقيت لغة كتابة وأدب ودين بعد ذلك حتى القرن الرابع عشر الميلادي (٢٣) .

وقد قام السريان بدور هام في الصلة الحضارية والثقافية في العالم القديم ، فكانوا واسطة في نقل الثقافة من الشرق الى الغرب ، كما حملوا ثقافة اليونان الى مدارس الرها ونصيبين وحران وجنديسابور ، وقد قاموا كذلك بنصيب عظيم في ترجمة كتبهم الى العربية ، بما تحمله من ذخيرة نفيسة ، وغنى علمي ، وقد شاركهم العرب في ذلك مشاركة ضئيلة اولا ، ثم مشاركة فعالة في وقت متأخر نسبيا ، ويدعي دي بور بان الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونا نالى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي يكادون جميعا يكونون من السريان(٢٤)، وان كان هذا الادعاء في حاجة الى اثبات ، فمن غير المعقول ان تحدث كل هذه المخالطة والمشاركة ، ولايدخل العرب ميدان الترجمة الا بعد هذا الوقت الطويل ، خصوصا في عهد يقظتهم العلمية النشيطة .

وعلى كل حال فمما يهمنا في هذا البحث ان نوضح نقطتين – لما لهما من عميق الصلة بما نحن فيه – احداهما ترجع الى صلتهم بالثقافة الهيلينية ، والاخرى تعود الى صلتهم بالثقافة العربية ، وهما معا تكونان جسر انتقال الثقافة اليونانية الى التفكير العربي .

لقد اتصل اليونان بالثقافة اليونانية اتصالا وثيقا – كانت عوامله ما شرحناه فيما سبق – فعرفوا منها الوانا مختلفة كالرياضيات والطب والاخلاق وما بعد الطبيعة ، والفلسفة ، ولكن وجهت عنايتهم بصفة خاصة الى المنطق ، وربما تعود هذه العناية الى صلة المنطق بالكتب الدينية اليونانية وصبغها بالصبغة الصورية ، وقد اهتم السريان بهذه الكتب كما سبق ذلك ، فاهتموا ايضا بما تاثرت به وهو المنطق ، بل انهم حين درسوا لغتهم تأثرت دراستهم به ، واصطبغت بتلك الافكار المنطقية التي عرفوها عن اليونان (٢٥) .

فلما كانت الصلة بين العرب والثقافة اليونانية عن طريق السريان، عرفوا عنهم ما عرفوه من قبل من تلك الثقافة ، وتأثروا بصفة خاصة بالابحاث المنطقية ،وبخاصة في الدراسات اللغوية العربية في عهودها المتأخرة حيث اصطبغت بطريقة شكلية صورية ، وسرت فيها الطريقة الجدلية الذهنية الحادة – مما لا مجال لتفصيله هنا – اذ كان لارسطو ومنطقه فعل السحر في نفوس العرب ، كما كان له من قبل في نفوس السريان ، فحظي بعناية لم يظفر بها علم مثله فيما ترجم عن اليونانية .

تلك هي صلة التفكير العلمي العربي بالثقافة اليونانية ، بينت – بايجاز غير مخل – تاريخه وطرقه ومن قاموا به ، وما قاموا به ، ولعلي قد وفقت في ذلك .

– ٥ –

وبعد :

فماذا يمكن ان يفيده الدارسون من هذا المقال العلمي عن صلة الثقافة العربية تاريخيا بالتراث القديم ؟؟

اولا : يمكن في ضوئه تقويم ما يشاع – عن عمد او سذاجة – عن تخلف العقلية العربية ، وان العرب مدينون لعلماء الفرس دينا يغل اعناقهم الى الابد في يقظتهم العلمية منذ القرن الثاني الهجري ، وقد تبين فيما سبق خطأ هذه الفكرة .

ثانيا : انه لا خجل مطلقا فيما افاده الدارسون العرب والمتعربون من تراث اليونان العظيم ، فقد افاد العرب منهم كما افادوا غيرهم فيما بعد ، فالعلم ميراث البشرية تتناقله جيلا بعد جيل وهو دولة بين الناس لا يمكن لاحد ان يحتكره لنفسه والى الابد ، وقد ادى العرب دورهم الرائع في هذه التركة الانسانية ، فافادوا ونموا ما افادوه ، وصبغوه بروحهم وجهدهم ، واكبر دليل على هذه الفكرة هو عصرنا الحديث الذي تشترك وتتفاعل فيه كل الامم والشعوب في العلوم التجريبية والانسانية على السواء .

ثالثا : في تقويم تراثنا ينبغي ان يوضع في الاعتبار العناصر الفلسفية والمنطقية التي اثرت – مادة وتفكيرا – في كثير من العلوم ، وبخاصة العلوم اللغوية والدينية ، كالنحو وعلم الكلام والبلاغة والتفسير، وما اصطبغت به من هذين الرافدين ، لكي تقوم دراستها وتنقيتها على اساس منهجي سليم .

القاهرة — محمد عيد

المراجع بحسب ما وردت في هذا المقال :

١ – تاريخ الخلفاء — السيوطي
٢ – ضحى الاسلام — احمد امين
٣ – تراث فارس (مجموعة من المستشرقين) محمد كفافي واخرين
٤ – الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية (فون كريمر) مصطفى بدر
٥ – الحضارة العربية (ي. هل) ابراهيم العدوي
٦ – فتوح البلدان — البلاذري
٧ – تاريخ الفلسفة في الاسلام (دي بور) محمد عبدالهادي ابو ريده
٨ – تحقيق ما للهند من مقولة — البيروني
٩ – حضارة العرب — غوستاف لوبون
١٠ – التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (مجموعة بحوث للمستشرقين) عبد الرحمن بدوي
١١ – مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب (أوليري) تمام حسان
١٢ – اللغة بين المعيارية والوصفية — تمام حسان

صدر حديثا :

	ق. ل.
● صراع الطبقات تأليف ريمون آرون	٥٠٠
● شتاء البحر اليابس (رواية) تأليف وليد اخلاصي	٢٠٠
● آفاق الفكر المعاصر تأليف نخبة من اختصاصيي العالم	٢٠٠٠
● درانمانا (رواية) تأليف محمد برجاوي	٣٥٠
● قوت الارض تأليف اندريه جيد	٣٠٠

تحت الطبع

– الهندسة الادارية للمهندس محمود الشكرجي	١٠٠٠
– الاتجاهات الادبية في القرن العشرين تأليف البير يس	٥٠٠

تطلب هذه الكتب وغيرها من :

منشورات – عويدات
ص. ب ٦٢٨ بيروت – لبنان
تلفون ٢٤٢٦٦٠

(٢٣) راجع : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٧٤ – الفصائل اللغوية ص ٢٥

(٢٤) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢١

(٢٥) راجع : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦٩